



Signs of Alienation and Their Semiotic Representations in the Works of Gibran Khalil Gibran and Elia Abu Madi: A Comparative Study

Sultan bin Saeed Murai' Abu Dabeel ^{1,*}

¹ Department of General Studies – Prince Sultan University, Riyadh..

*Corresponding author: dr.sultan@psu.edu.sa

Keywords

- | | |
|------------------|---------------------|
| 1. Alienation | 2. Semiotic |
| 3. Kahlil Gibran | 4. Elia Abu Mad[.]p |
-

Abstract:

This study, entitled “Signs of Alienation and Their Semiotic Representations in the Works of Kahlil Gibran and Elia Abu Madi: A Comparative Study,” investigates the ways in which the experience of alienation is constructed in their texts through a network of signs and relationships, and how these signs are organized into a semantic structure that reveals the specificity of the experience in each poet’s work. The study aims to identify the most prominent spatial, natural, subjective, and temporal signs; analyze their functions and interrelationships; elucidate the semantic binary oppositions that contribute to constructing representations of alienation; and highlight the points of convergence and divergence between the two experiences. Its significance derives from combining the study of alienation with a semiotic approach, which makes it possible to move beyond identifying manifestations of alienation toward analyzing the signs that produce its meaning and the mechanisms through which they are organized within the text. The study adopts a semiotic approach, drawing also on the comparative method, and is structured around an introductory section and three main sections addressing spatial signs, natural signs, and subjective and temporal signs, with comparison incorporated throughout the analysis. The study concludes that alienation is constructed through an interconnected network of signs whose meanings are determined by their relationship to the self, the other, and the context. In Gibran’s work, space tends to constitute an alternative realm that accommodates the self and grants it freedom and protection, whereas in Elia’s work, it is associated with departure, separation from the original place, and the search for another horizon. Likewise, nature becomes, in Gibran’s work, an inner equivalent of the self, while in Elia’s work it becomes a mirror of wakefulness, wandering, and waiting. Gibran’s experience tends toward an existential and value-oriented horizon that invokes nature, love, and dreams, whereas Elia’s experience takes shape through fear, loneliness, anxiety, and searching. This highlights the distinctive poetic vision of each poet and the multiplicity of semiotic trajectories through which alienation manifests itself in their respective experiences.

علامات الاغتراب وتمثلاته السيميائية لدى جبران خليل جبران وإيليا أبي ماضي: دراسة مقارنة

سلطان بن سعيد مريع أبو دبيل^{1*}

اقسم الدراسات العامة – جامعة الأمير سلطان بالرياض.

*المؤلف: dr.sultan@psu.edu.sa

الكلمات المفتاحية

1. الاغتراب
2. السيميائية
3. جبران خليل جبران
4. إيليا أبو ماضي

الملخص:

يتناول هذا البحث: (علامات الاغتراب وتمثلاته السيميائية لدى جبران خليل جبران وإيليا أبي ماضي)؛ منطلقاً من إشكالية تتمثل في الكشف عن الكيفية التي تتشكل بها تجربة الاغتراب في نصوصهما من خلال شبكة من العلامات والعلاقات، وكيف تنتظم هذه العلامات في بناء دلالي يكشف عن خصوصية التجربة لدى كل منهما، ويهدف البحث إلى تحديد أبرز العلامات المكانية والطبيعية والذاتية والزمانية، وتحليل وظائفها وعلاقاتها المتبادلة، واستجلاء الثنائيات الدلالية التي تسهم في بناء تمثلات الاغتراب، مع إبراز أوجه الاتفاق والاختلاف بين التجريبتين، وتتبع أهميته من الجمع بين دراسة الاغتراب والتحليل السيميائي الذي يتيح الانتقال من رصد مظاهر الاغتراب إلى تحليل العلامات المنتجة لدلالاته وآليات انتظامها داخل النص. واعتمد البحث المنهج السيميائي، مع الإفادة من المنهج المقارن، وقد انتظم في تمهيد وثلاثة مباحث تناولت العلامة المكانية، والعلامة الطبيعية، والعلامات الذاتية والزمانية، مع إجراء المقارنة في أثناء التحليل. وتوصل البحث إلى أن الاغتراب يتشكل من خلال شبكة متفاعلة من العلامات، تتحدد دلالاتها وفق علاقتها بالذات والآخر والسياق؛ فالمكان عند (جبران) يتجه إلى تشكيل فضاء بديل يستوعب الذات ويمنحها الحرية والحماية، بينما يرتبط عند (إيليا) بالرحيل ومفارقة المكان الأول والبحث عن أفق آخر. كما تتحول الطبيعة عند (جبران) إلى معادل داخلي للذات، في حين تغدو عند (إيليا) مرآة للسعد والته والانتظار. وتنتج تجربة (جبران) إلى أفق وجودي وقيمي يستحضر الطبيعة والمحبة والحلم، بينما تتشكل تجربة (إيليا) عبر الخوف والوحدة والهم والبحث، بما يبرز خصوصية الرؤية الفنية لكل منهما وتعدد المسارات السيميائية التي يتخذها الاغتراب في تجريبتهما.

المقدمة:

تتصل تجربة الاغتراب بعلاقة الإنسان بذاته ومحيطه وواقعه، وما يعترى هذه العلاقة من توتر وفقد وانفصال ووحشة واختلال في الانسجام بين الذات والعالم، وقد وجد الأدب في هذه التجربة مجالاً خصباً للتعبير عن أبعادها ومستوياتها المختلفة، وتتجلى خصوصية هذه التجربة في الأدب المهجري، ولا سيما في كتابات (جبران خليل جبران) و(إيليا أبي ماضي)؛ إذ أعادت تجربة المهجر صياغة علاقتهما بالمكان والزمن والطبيعة والإنسان والوجود، وحملت نصوصهما علامات تتفاعل مع التجربة الاغترابية وتمثلاتها.

مشكلة البحث وتسألاته:

يفتح تحليل الاغتراب من زاوية علاماته وتمثلاته السيميائية مجالاً للنظر في كيفية بناء دلالاته داخل النص، من خلال العناصر والعلاقات التي تنتظم في سياقه، ومن هنا تتحدد مشكلة البحث في السؤال الرئيس الآتي: كيف تتشكل علامات الاغتراب وتمثلاته السيميائية لدى (جبران) و(إيليا أبي ماضي)، بما يكشف عن خصوصية تجربة الاغتراب لدى كل منهما؟

ويتفرع عن هذا السؤال عدد من التسألات، هي:

1. ما المقصود بالاغتراب في سياق التجربة المهجرية، وما حدود علاقته بالغرابة والحنين؟
2. ما أبرز العلامات التي تستند إليها نصوص جبران وإيليا في تشكيل التجربة الاغترابية؟
3. كيف تتحول العلامات المكانية والطبيعية والذاتية والزمانية إلى دوال على الاغتراب؟
4. كيف تتفاعل هذه العلامات داخل النص، وما الدلالات التي تنشأ عن علاقاتها المتبادلة؟

كيف تكشف هذه العلاقات عن خصوصية الرؤية إلى الاغتراب لدى جبران وإيليا؟

أهداف البحث:

يسعى البحث إلى تحقيق مجموعة من الأهداف، من أبرزها:

1. الكشف عن البنية العلاماتية التي يتشكل من خلالها الاغتراب لديهما.
2. تحديد أبرز العلامات المكانية والذاتية والطبيعية والزمنية التي تهض بتمثيل التجربة الاغترابية وتحليلها.
3. الكشف عن التمثلات السيميائية للاغتراب من خلال العلاقات والثنائيات التي تنتظم داخل النصوص.
4. بيان خصوصية التجربة الاغترابية عند كل منهما من خلال المقارنة المباشرة بين آليات بناء الدلالة في نصوصهما.

أهمية البحث:

تتبع أهمية البحث من تناوله تجربة الاغتراب في نصوص (جبران خليل جبران) و(إيليا أبي ماضي) من منظور سيميائي يركز على فاعلية العلامة في تشكيل المعنى، بما يسهم في الإفادة من التحليل السيميائية في تحليل التجارب الاغترابية في الأدب العربي، وإبراز ما تتيحه المقارنة من رؤية أعمق للفروق في تمثيل الاغتراب بين تجربتين أدبيتين متقاربتين في بعض منطلقاتهما ومختلفتين في طرائق التعبير عنهما.

الدراسات السابقة:

تناول عدد من الدراسات تجربة الاغتراب في الأدب المهجري من مداخل متعددة، واهتم بعضها بـ (جبران خليل جبران) و(إيليا أبي ماضي)، من أبرزها:

1. دراسة (سهيلة بن عمر): الثنائيات المكانية

عند شعراء جماعة الرابطة القلمية: من

جغرافيا المكان إلى شعرية المكان، مجلة

مقاليد، جامعة قاصدي مرباح-ورقلة، ع4،

يونيو 2013م، ص19-30.

اتجهت إلى تحليل الثنائيات المكانية لدى شعراء الرابطة القلمية، مركزة على انتقال المكان من دلالاته الجغرافية إلى شعرية المكان وأبعاده النفسية والجمالية.

2. دراسة (السايح الويزة)، (خوماري فاطمة):

الغربة والحنين وأثرهما في التشكيل الشعري

عند إيليا أبي ماضي، مذكرة ماستر، كلية

الآداب واللغات، جامعة أكلي محند أولحاج-

البويرة، الجزائر، 2015م.

اتبعت المنهج الأسلوبي في دراسة الغربة والحنين عند

(إيليا أبي ماضي)، من خلال تحليل المعجم واللغة

والإيقاع والصورة الشعرية.

3. دراسة (الزروق عبد الحميد علي)، و(ماجدة

الهادي الماني)، و(أسماء محمد حيدر):

نوازع الشوق والحنين لدى شعراء المهجر:

إيليا أبو ماضي نموذجًا، مجلة البحوث

الأكاديمية، مج14، 2019م، ص1-17.

تناولت الشوق والحنين في تجربة إيليا أبي ماضي من

خلال المنهج التحليلي، ورصدت أبعادهما الوجدانية

في شعره المهجري.

4. دراسة (زينب عباس عبدالله): الغربة في شعر

جبران خليل جبران، مجلة الجامعة العراقية،

ع58، ج2، 2023م، ص289-301.

اتخذت المنهج التحليلي في دراسة الغربة في شعر

(جبران خليل جبران)، متتبعة مظاهرها ودوافعها

وتجلياتها.

وتلتقي هذه الدراسات في اهتمامها بجوانب من تجربة

الاغتراب أو المكان أو الحنين لدى أدباء المهجر، في

حين تتجه الدراسة الحالية إلى تحليل التجربة من

منظور سيميائي مقارن، يركز على علامات الاغتراب

وتمثلاته لدى (جبران) و(إيليا)، ويتتبع طرائق انتظام

العلامات المكانية والطبيعية والذاتية والزمانية في بناء

دلالات التجربة داخل النصوص المختارة.

منهج البحث:

اعتمد البحث المنهج السيميائي في تحليل

النصوص المختارة؛ ساعياً من خلاله إلى رصد

علامات الاغتراب واستجلاء علاقاتها ودلالاتها داخل

السياق النصي؛ للكشف عن تمثيلات التجربة. كما أفاد

من إجراء المقارنة في رصد أوجه الاتفاق والاختلاف

بين تجربتي (جبران) و(إيليا).

خطة البحث:

اقتضت طبيعة البحث أن ينتظم في مقدمة وتمهيد

وثلاثة مباحث وخاتمة؛ تناول التمهيد مفهوم الاغتراب

في الأدب المهجري ومدخله السيميائي، وخصص

المبحث الأول للعلامة المكانية وتمثيلات الاغتراب،

وتناول المبحث الثاني العلامة الطبيعية وتمثيلات

الاغتراب، بينما تناول المبحث الثالث العلامات الذاتية

والزمانية وتمثيلات الاغتراب، ثم جاءت الخاتمة لتجمع

أبرز النتائج التي انتهى إليها البحث.

تمهيد: الاغتراب في شعر المهجر ومدخله السيميائي.

اتسع حضور مفهوم الاغتراب في الدراسات الإنسانية والأدبية الحديثة؛ لما يتيح من تحليل علاقة الإنسان بذاته والعالم والمجتمع، وما يكتنف هذه العلاقة من توتر وشعور بالانفصال وعدم الانتماء. وقد أفضى تعدد الحقول المعرفية التي تناولت هذا المفهوم إلى تنوع دلالاته واتساعها، مع اجتماعها حول تجربة يتغير فيها موقع الذات من نفسها ومن العالم المحيط بها؛ فتتحول الأشياء والأمكنة والقيم والعلاقات إلى مكونات فاعلة في تشكيل وعيها بوجودها، وفي هذا الوعي تتجلى حقيقة الاغتراب بوصفه تجربة "تعلق بالروح، إنه واقعة روحية؛ لأن الروح وحده هو الذي يعرف بوعي ذاته على أنها عالمه هو، ويعرف بوعي عالمه على أنه هو ذاته"⁽¹⁾؛ ومن ثم تتشكل التجربة الاغترابية في المسافة التي تنشأ بين الذات والعالم، وفي التحولات التي تصيب إحساس الإنسان بموقعه وانتمائه وقدرته على التوافق مع محيطه.

وتتصل الغربة بالاغتراب اتصالاً وثيقاً في التجربة الأدبية، إذ ترتبط الغربة في دلالتها الأولى بالبعد عن الوطن والأهل والمكان المألوف، بينما يمتد الاغتراب إلى المجال النفسي والقيمي وعلاقة الإنسان بذاته ومجتمعه، وقد تتحول المسافة المكانية إلى وعي بالانفصال، كما قد تنشأ الغربة النفسية داخل المكان المألوف؛ فتتداخل المسافة الجغرافية مع المسافة

الشعورية، ويغدو الشعور بالانتماء مرتبطاً بصورة الذات عن العالم الذي تعيش فيه.

ومن هنا تتخذ الغربة مستويات مادية ومعنوية تتدرج من البعد عن الوطن والأهل إلى العزلة؛ "فالغربة تتضمن معاني العزلة، أما الاغتراب فيتضمن معاني الانفصال المعنوي الذاتي"⁽²⁾، وتكشف هذه العلاقة المتداخلة عن طبيعة التجربة المهجرية التي تجمع في بنيتها بين حركة الجسد في المكان وتحولات الوعي في الداخل.

بل إن خصوصية شعر المهجر تتجلى في هذا التداخل؛ فقد وضعت الهجرة الشاعر أمام فضاء جديد يفصله عن وطنه وذاكرته ومحيطه الأول، وفتحت في الوقت نفسه مجالا لإعادة النظر في علاقته بالمجتمع والقيم والإنسان والطبيعة، ومن هذه المسافة تبلورت أسئلة الانتماء والهوية والذات والآخر، وتجاورت في التجربة المهجرية دلالات الحنين والتأمل والعزلة والرفض والبحث عن عالم أكثر انسجاماً مع تطلعات الذات⁽³⁾.

وتتدرج تجربة (جبران خليل جبران) و(إيليا أبي ماضي) ضمن هذا السياق؛ حيث أسهمت تجربة المهجر في إعادة تشكيل علاقتهما بالمكان والمجتمع والطبيعة والإنسان، وأمدت الخطاب الشعري بعلامات متعددة تستوعب مستويات التجربة الاغترابية وتحولاتها، ومن هنا يتجه تحليل الاغتراب إلى بنيته النصية؛ حيث تتجسد التجربة الشعورية من خلال

⁽¹⁾ (محمود رجب: الاغتراب، سيرة مصطلح، دار المعارف، القاهرة، ط3، 1988م، ص173.

(2) عبده بدوي: الغربة والاغتراب والشعر، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، ط2، 1998م، ص9.

(3) محمد موسى الزين: الاغتراب والحنين في الشعر المهجري، رسالة دكتوراه منشورة، جامعة الخرطوم، 2010م، ص440.

شبكة من العلامات تنتظم في ألفاظ وصور وأمكنة وأزمنة وأشياء وأفعال وعلاقات خطابية.

فالمفهوم الواسع للعلامة يجعل كل عنصر في النص قابلاً لأن يُنظر إليه بوصفه علامة⁽⁴⁾، وتتحدد قيمة العلامة من خلال موقعها داخل النسق والعلاقات التي تصلها بغيرها من العلامات؛ وعلى هذا الأساس، يقصد البحث بـ (علامات الاغتراب): مجموع العناصر النصية التي تستدعي التجربة الاغترابية وتشارك في إنتاج دلالتها، سواء جاءت في صورة ألفاظ صريحة أم صور شعرية أم أمكنة وأزمنة وعناصر طبيعية، أو ظهرت من خلال الأفعال والحركات والضمائر والتقابلات والتوترات التي تنتظم داخل الخطاب.

وتتحدد القيمة الاغترابية للعلامة وفق موقعها في السياق وعلاقتها بالذات وبسائر مكونات النص؛ فقد يرتبط الوطن بالانتماء والحميمية في سياق، بينما يستدعي الفقد والغياب في سياق آخر، وقد يحضر الغاب في صورته الطبيعية، ثم تتسع دلالاته وفق علاقته بالذات وبالمكان وبالعالم المحيط.

وتتصل هذه الرؤية بمفهوم (التمثلات السيميائية للاغتراب)، الذي يشير إلى: الكيفية التي تتجسد بها التجربة داخل النص من خلال انتظام علاماتها وعلاقاتها؛ فقد يتشكل الاغتراب عبر المكان، أو الطبيعة، أو الزمن، أو علاقة الذات بالآخر، أو عبر التقابلات التي تنشأ بين الحضور والغياب، والانتماء والمفارقة، والواقع والبدل.

وتتحول العلامات -من خلال انتظامها داخل هذه العلاقات- إلى بنية دالة تمنح التجربة الاغترابية

صورته الفنية الخاصة؛ باعتبار أن النص "بنية مفتوحة لعلاقات مفتوحة"⁽⁵⁾؛ الأمر الذي يتيح تتبع تحولات العلامة وانتقالها بين مستويات متعددة من الدلالة وفق موقعها في البناء الشعري ومن ثم تحليلها. وتزداد أهمية هذا التحليل في الشعر المهجري من خلال شبكة العلاقات الثنائية التي تحكم تجربته، ومنها الوطن/ المهجر، والحضور/ الغياب، والماضي/ الحاضر، والذات/ الآخر، والواقع/ الطبيعة، والقيد/ الحرية، والعزلة/ الانتماء؛ إذ تعمل هذه الثنائيات داخل النص باعتبارها علاقات دلالية تتولد من توترها حركة المعنى؛ فصورة الوطن تستدعي حضور الذاكرة، والغياب يفتح فضاء الحنين، والاختلاف يكشف موقع الذات من الآخر، والطبيعة تستجيب لتحولات التجربة الداخلية. ومن ثم تتجه الدراسة إلى استكشاف النظام العلاماتي الذي تنتظم داخله هذه العلاقات، والكشف عن الكيفية التي تسهم بها في بناء صورة الذات المغتربة.

وعلى هذا الأساس، ينتظم التطبيق في ثلاثة مباحث متكاملة؛ يتناول أولها العلامة المكانية وتمثلات الاغتراب، ويتجه ثانيها إلى العلامة الطبيعية وتمثلات الاغتراب، بينما يدرس ثالثها العلامات الذاتية والزمانية وتمثلات الاغتراب، مع مراعاة التداخل بين هذه الأنساق؛ فالمكان يتصل بالطبيعة والذاكرة، والزمن يتفاعل مع المكان، والذات تتشكل في علاقتها بالآخر وبالعالم؛ وبهذا تتضافر مستويات التحليل في الكشف عن البنية العلاماتية التي تتشكل من خلالها تجربة الاغتراب في شعر (جبران) و(إيليا أبي ماضي).

(5) منذر عياشي: السيمياء، (السيمولوجيا)، قراءة في العلامة اللغوية العربية، دار أمل، سورية، ط1، 2018م، ص174.

(4) ينظر: منذر عياشي: العلامية وعلم النص، نصوص مترجمة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2004م، ص45.

المبحث الأول: العلامة المكانية وتمثلات الاغتراب.

يمثل المكان أحد المكونات الدالة في تشكيل التجربة الأدبية، إذ "ينظر إليه على أنه عنصر شكلي وتشكيلي من عناصر العمل الفني، وأصبح تفاعل العناصر المكانية وتضادها يشكلان بعدا جماليا من أبعاد النص، هذا بالإضافة إلى أن المكان كان ومازال يلعب دورا هاما في تكوين هوية الكيان الجماعي، وفي التعبير عن المقومات الثقافية، ويصبح المكان إشكالية إنسانية إذا ما اغتصب، أو إذا حرمت منه الجماعة؛ ولذا فإنه يكتسب قيمة خاصة"⁽⁶⁾.

وتتنامي القيمة الدلالية للمكان من خلال صلته بالذات وبالعناصر المنتظمة في سياقه؛ إذ تتفاعل الفضاءات داخل الخطاب الشعري وفق علاقات مكانية تتولد عنها دلالات تتصل بالتجربة الإنسانية ومواقف الذات ورؤيتها للعالم. وتتحدد خصوصية هذه العلاقات في التجربة الاغترابية من خلال المسافات التي تتشكل بين الذات والأمكنة، وما تستدعيه من معاني الانتماء والمفارقة، والاستقرار والرحيل، والمكان المألوف والمكان البديل.

ومن هنا تتشكل العلامة المكانية داخل شبكة من العلاقات التي تمنح الفضاء الشعري قدرته على التعبير عن التجربة، فتتداخل دلالات المكان مع الذاكرة والشعور والحركة، وتتصل جغرافية الفضاء بحركة الذات الداخلية وتحولاتها؛ ليغدو المكان عنصرا فاعلا في بناء دلالة الاغتراب والكشف عن علاقة الذات بمحيطها، يتضح ذلك من قول (جبران):

هل اتخذت الغاب مثلي

منزلا دون القصور

فتتبع السواقي

وتسلقت الصخور؟

هل فرشت العشب ليلا

وتلحفت الفضا

زاهدا في ما سيأتي

ناسيا ما قد مضى

أعطني الناي وغنّ

وانس داءً ودواء

إنما الناس سطورٌ

كتبتُ لكن بماء⁽⁷⁾

يشكل المكان علامة اغترابية في هذا المقطع من خلال الصلة التي تنشأ بين الفضاء المكاني وموقف الذات الشاعرة من العالم الذي تنتمي إليه، فحين يُفتتح المقطع باستفهام يحمل في بنيته معنى المشاركة والتماهي: "هل اتخذت الغاب مثلي منزلاً دون القصور؟"، يتجاوز الغاب دلالاته المكانية المباشرة، ويتحول إلى فضاء تختار الذات الإقامة فيه، في مقابل (القصور) التي تحيل إلى نمط آخر من الحياة ومظاهر العمران الاجتماعي، على أن هذا التقابل بين (الغاب) و(القصور) يكتسب قيمته العلاماتية من موقع كل منهما في بنية الخطاب؛ فالغاب يرتبط بالسواقي والصخور والعشب والفضاء، وهي مفردات تتضافر في تشكيل بيئة طبيعية تستوعب الذات وتتيح لها نمطا من العيش يقوم على القرب من الطبيعة والانفتاح على فضاءها، بينما تحضر القصور حاملة

(6) يوري لوتمان وآخرون: جماليات المكان، عيون المقالات، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1988م، ص3.

(7) جبران خليل جبران: المواقب، دار البستاني للنشر والتوزيع، القاهرة، د. ط، 1993م، ص91-92.

يسمح لنا أن نعيش، عندما نشعر أن الحياة بكاملها تتضاعف، أنا أكون وحيداً، إذن أنا أحلم بالكائن الذي كان قد شفى عزلتي، والذي بإمكانه شفاء عزلاتي⁽⁸⁾، فالوظيفة التي يؤديها المكان حين ينفصل عن وظيفته المادية المباشرة تتجلى حين يتحول إلى فضاء تستعيد فيه الذات حريتها من خلال الحلم والتأمل.

والغاب في تجربة (جبران) يؤدي هذه الوظيفة من خلال تحويل العزلة من حالة اغترابية سلبية إلى اختيار وجودي يمنح الذات إمكانية الانفصال عن العالم الاجتماعي وإعادة بناء صلتها بذاتها وبالطبيعة؛ ومن ثم، فإن قوله: "هل فرشت العشب ليلاً وتلحفت الفضا" يكتسب دلالاته الأعماق حين يحول المكان إلى فضاء تتداخل فيه الحاجة إلى الحماية مع الرغبة في الحرية؛ ف"المكان الذي يجذب نحوه الخيال لا يمكن أن يبقى مكاناً لامبالياً، ذا أبعاد هندسية وحسب؛ فهو مكان قد عاش فيه بشر ليس بشكل موضوعي فقط، بل بكل ما في الخيال من تحيز، إننا ننجذب نحوه لأنه يكتف الوجود في حدود تتسم بالحماية"⁽⁹⁾، هكذا يبدو (الغاب) علامة تحيل إلى اغتراب الذات عن عالمها الاجتماعي بقدر ما هو علامة على احتمائها بعالم طبيعي بديل.

ويتعزز هذا التحول من خلال قوله: "زاهداً في ما سيأتي.. ناسياً ما قد مضى"؛ إذ يكتسب الغاب بعداً زمنياً إلى جانب بعده المكاني، فتتصل الإقامة فيه بموقف من الماضي والمستقبل؛ فاختيار الغاب يقترن -هنا- بإعادة ترتيب علاقة الذات بالزمن؛ فالماضي

صورة عالم اجتماعي مغاير اختارت الذات موقعاً آخر بإزائه.

ومن خلال هذا التقابل يتشكل المكان في صورتين متباينتين: فضاء طبيعي مفتوح تندمج فيه الذات بعناصره، وفضاء اجتماعي تبتعد عنه الذات وتبحث لنفسها عن موضع آخر.

وهنا يلح التساؤل: ما الداعي لاستبدال الغاب بالقصور؟! تجيب الدلالة في الأبيات اللاحقة عن هذا التساؤل: "فتتبع السواقي وتسلفت الصخور، هل فرشت العشب ليلاً وتلحفت الفضا"؛ إذ تتحول العلاقة بالمكان من مجرد إقامة إلى تفاعل وممارسة وجودية كاملة مع تفاصيله؛ فالأفعال: (تتبع، تسلفت، فرشت، تلحفت) تجعل الذات في تماس مباشر مع المكان، وتمنحه خصائص المأوى الذي يمكن أن يحتويها.

ويكتسب الفعل (تلحفت) -خصوصاً- كثافة دلالية هنا؛ لأن اللحاف في أصله علامة على الحماية والاحتواء، وحين يصبح (الفضا) لحافاً للذات؛ فإنه يتحول إلى ما يشبه الحاضن البديل.

وهنا تتداخل العلامة المكانية مع العلامة الذاتية؛ فالمكان يُفهم من خلال حاجة الذات إليه، والذات تعيد تعريف المكان من خلال طريقة حضورها فيه.

وتتضح هذه الوظيفة الاحتوائية للمكان في ضوء ما يطرحه (باشلار) حول علاقة الذات بالفضاء في لحظات العزلة والتأمل؛ إذ يقول: "في تأملاتنا الشاردة الأكثر توحداً، عندما نستدعي الكائنات المفقودة، عندما نمثلن الكائنات العزيزة علينا، نعم بالحرية بما

(9) غاستون باشلار: جماليات المكان، تر: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط2، 1984م، ص31.

(8) غاستون باشلار: شاعرية أحلام اليقظة، عالم شاعرية التأملات الشاردة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1991م، ص72-73.

الذي تستدعيه الذاكرة، والمستقبل الذي يحمله التطلع، يتراجعان لصالح لحظة مكانية حاضرة تتفصل فيها الذات عن الزمن والعالم الخارجي لتعيش حلمها وتتم بحريتها.

ويأتي الأمر: (أعطني الناي وغنّ.. وانس داءً ودواء)؛ ليعمق هذا الانفصال؛ إذ يتشكل الغاب -بما يحيط به من سواقي وصخور وعشب وفضاء- في مقابل عالم تتجسد فيه ثنائية "(لداء والدواء)"، وهي ثنائية تحيل إلى منظومة من المشكلات والعلاجات والانشغال الإنساني.

ومن ثم يتجه المكان إلى أداء وظيفة تتصل بإعادة بناء علاقة الذات بالعالم، حيث يصبح الفضاء الطبيعي مجالا تتخفف فيه من الأعباء التي ارتبطت بعالمها الأول، مجالا تستعيد فيه قدرتها على الحلم والحياة -على حد وصف (باشلار) في قوله:- "عندما يُبعدُ حالم التأملات الشاردة جميع الهموم التي كانت تملأ حياته اليومية، عندما يفلت من المشاكل التي تأتية من مشاكل الآخرين، عندما يصبح فعلا صاحب عزلته، وعندما -أخيرا- يستطيع أن يتأمل مظهرها جميلا من هذا العالم دون أن يحسب الساعات، عندما يشعر هذا الحالم أن العالم يشرع أبوابه له فجأة، حالم كهذا هو حالم العالم، يفتح على العالم والعالم يُفتح له، إنه يستريح في اطمئنانه، الحالم مطمئن أمام مياه مطمئنة. فالاطمئنان هو الكينونة نفسها للعالم ولحالمه"⁽¹⁰⁾؛ فالعزلة -هنا- لا تعني الانقطاع العدمي عن الوجود، وإنما تتيح للذات أن تعيد ترتيب علاقتها به، فتجعل الغاب مأوى رمزيا يقي الذات من ضغوط

العالم، ويمنحها إمكانية العيش المطمئن خارج منظوماته المألوفة.

وبذلك يقوم الاغتراب المكاني عند (جبران) على مفارقة دقيقة؛ إذ تتسحب الذات من عالمها الاجتماعي؛ لتعيد توجيه وجودها نحو فضاء طبيعي تستمد منه الحماية والحرية والقدرة على الحلم، فيغدو الغاب علامة على الاغتراب عن العالم الاجتماعي، وعلى الاحتماء في الوقت نفسه، بعالم بديل تعيد الذات من خلاله بناء صلتها بالوجود.

وتتخذ العلامة المكانية عند (إيليا أبي ماضي) مسارا دلاليا مغايرا، تتشكل فيه تجربة الاغتراب من خلال ثنائية (المشرق) و(الغرب)، وما تنشئه من علاقات بين الرحيل والانتماء، والقرب والبعد، والوطن والمكان البديل، حيث يقول:

(نيويورك) يا بنت البخار، بنا اقصدي

فلعلنا بالغرب ننسى المشرقاً

وطنٌ أردناه على حبّ الغلا

فأبى سوى أن يستكين إلى الشقا

كالعبد يخشى، بعد ما أفنى الصبا

يلهو به ساداته، أن يُعتقا

هذا جزاء ذوي النهى في أمة

أخذ الجمود على بنيتها مؤثقا⁽¹¹⁾

⁽¹¹⁾ إيليا أبو ماضي، الأعمال الشعرية الكاملة، جمع وتقديم: عبدالكريم الأشتر، مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت، ط1، 2008م، ص281.

⁽¹⁰⁾ باشلار: شاعرية أحلام اليقظة، ص149.

هربا من مكان أول لم تعد قادرة على الانسجام معه: "وطن أردناه على حبّ العُلا؛ فأبى سوى أن يستكين إلى الشقا"؛ إذ ينتقل المكان من دلالة "المشرق" العامة إلى دلالة "الوطن"؛ فتظهر المفارقة بين ما تريده الذات من المكان وما يفرضه الواقع عليها؛ فالضمير في "أردناه" يكشف عن أن العلاقة بالأرض لم تبدأ بالرفض، بل قامت في أصلها على التطلع والانتماء والرغبة في أن يكون الوطن مجالا لتحقيق "العُلا".

غير أن الفعل (أبى) يقيم حدا فاصلا بين إرادة الذات واستجابة المكان؛ فالوطن الذي أردته الذات فضاء للارتقاء تحول إلى فضاء "للشقا"؛ وبذلك يظهر الاغتراب نتيجة لعجز المكان عن تحقيق الصورة التي تحملها الذات عنه؛ فيصبح الوطن مصدرا للاغتراب بقدر ما هو موضوع للانتماء. ويزداد هذا التوتر وضوحا من خلال التقابل بين (حب العُلا) و(الشقا)؛ إذ تنتظم العلامة المكانية داخل ثنائية دلالية تكشف المسافة بين المكان المأمول والمكان الواقعي؛ فـ"العُلا" تحيل إلى الارتقاء والطموح، بينما يحيل "الشقا" إلى المعاناة والانكسار؛ ومن ثم يتحول الوطن من فضاء لتحقيق الذات إلى فضاء يحول دون تحقيقها.

وإذا كان (الغاب) عند (جبران) قد استطاع أن يؤدي وظيفة المكان الحاضن، فيمنح الذات حماية وحرية بديلتين عن العالم الاجتماعي، فإن الوطن عند (إيليا) يفقد وظيفته الاحتوائية حين عجز عن استيعاب الذات وطموحها، فاتجهت إلى الخارج بحثا عن فضاء آخر، وتتأكد هذه الدلالة من خلال التشبيه: "كالعبد يخشى، بعد ما أفنى الصبا، يلهو به ساداته، أن يُعتقا"؛ إذ يعاد تشكيل العلاقة بالمكان من خلال صورة القيد والخضوع؛ فالذات تبدو كائنًا محكوما بعلاقة سلطة

يشكل المكان في هذا المقطع علامة تتجاوز دلالتها الجغرافية إلى التعبير عن اختلال علاقة الذات بالمكان الذي تنتمي إليه؛ إذ يبدأ الشاعر بتوجيه حركة الرحيل نحو (نيويورك) في قوله: "يا بنت البخار، بنا اقصدي"؛ فتتحول المدينة من مجرد موضع جغرافي بعيد إلى غاية لحركة الذات، غير أن دلالتها لا تستقل عن المكان الأول، وإنما تتحدد من خلال مقابلها (المشرق)؛ ولذلك فإن قوله: "قلعلنا بالغرب ننسى المشرقاً" ينشئ علاقة تقابل بين فضاءين، أحدهما يغادره الشاعر متقلا بالذاكرة، والآخر يتجه إليه بحثا عن إمكان للنسيان. ومن ثم تتولد العلامة المكانية من المسافة بين المكانين، لا من خصائص (نيويورك) في ذاتها.

وهنا يلح التساؤل: ما الذي يجعل (الغرب) فضاء مرغوبا في مقابل (المشرق)؟! تكشف دلالة قوله: "قلعلنا بالغرب ننسى المشرقاً" عن ذلك؛ فليس المقصود وصف الغرب، ولا تقديم تفاصيل عن المكان الجديد، وإنما الوقوف على قيمته من خلال وظيفته في مواجهة المكان الأول؛ فالغرب -هنا- يمثل فضاء بديلا تتطلع إليه الذات؛ لتخفيف أثر تجربة المكان الأول؛ ولذلك فإن فعل (ننسى) يحمل دلالة تتجاوز النسيان العابر إلى محاولة الانفصال عن ذاكرة مكان أصبحت مثقلة بالمرارة.

ويختلف هذا المسار عن تجربة (جبران) في (الغاب)؛ إذ يكتسب المكان البديل لديه قيمته من خلال تفاصيل الإقامة والممارسة: (تتبع)، و(تسلفت)، و(فرشت)، و(تلحفت)؛ فيتحول الغاب إلى فضاء مأهول بالذات، أما (نيويورك) عند (إيليا) فتظل جهة تتجه إليها الذات

تمنعه من التحرر، ويؤدي التشبيه هنا وظيفة علامائية تحوّل المكان إلى فضاء للقيّد، وتجعل الرحيل رحلة بحث عن إمكانية للتحرر، وفي هذا يختلف (إيليا) مرة أخرى عن (جبران)؛ فالعزلة عند (جبران) تُمارس كفعل اختياري؛ حيث تتسحب الذات من القصور إلى الغاب وتجد في الطبيعة مجالا لحريتها، أما عند (إيليا) فإن المفارقة تنشأ من اضطرار الذات إلى مغادرة فضاء لم يعد يسمح لها بتحقيق حريتها.

وفق هذا التحليل، تتبلور خصوصية العلامة المكانية عند الشاعرين؛ فالمكان عند (جبران) يتخذ مسارا يقوم على الانسحاب الاختياري إلى فضاء بديل؛ إذ تغادر الذات عالم "القصور" لتجد في "الغاب" مأوى طبيعيا تستعيد فيه الحرية والحماية والحلم؛ فيغدو المكان البديل فضاء مأهولا بالذات، أما عند (إيليا) فيتشكل المكان من خلال صلة الذات بمكانها الأول؛ فـ "نيويورك" تمثل جهة للرحيل عن "المشرق"، بينما يظل الوطن حاضرا في الوعي باعتباره مكانا لم تستطع الذات أن تجد فيه شروط تحققها.

ومن ثم يقوم الاغتراب المكاني عند (جبران) على الاحتماء بمكان بديل، بينما يقوم عند (إيليا) على مفارقة المكان الأول والبحث عن أفق؛ آخر لتحقيق الذات.

المبحث الثاني: العلامة الطبيعية وتمثلات الاغتراب.

تمثل الطبيعة مكوّنًا دالا في تشكيل التجربة الأدبية التي تتشكل -بدورها- من "تمط خاص من العلاقات التي يقيمها الشعر بين الدال والمدلول من جهة، وبين المدلولات من جهة أخرى"⁽¹²⁾؛ فالليل، والسماء، والغاب، والماء، والطير، والنجوم، والريح، وغيرها من مفردات

الطبيعة، تكتسب دلالتها من موقعها في السياق ومن صلتها بالذات وبالعناصر المحيطة بها؛ فتتفاعل الصورة الطبيعية مع حركة التجربة، وتتداخل مظاهر العالم الخارجي مع ما يعتمل في الداخل من مشاعر ورؤى وتكريات؛ وبهذا يغدو العنصر الطبيعي وحدة دالة تتجاوز حضوره الحسي إلى طاقة إيحائية تتشكل وفق العلاقات التي يقيمها مع بقية مكونات النص.

وإذا كانت "العلاماتية هي دراسة العلامات وكل ما يحيل عليها: عملها، وعلاقاتها مع العلامات الأخرى، وإنتاجها، وتلقي المستعملين لها"⁽¹³⁾، فإن القيمة العلاماتية للطبيعة تتنامى من خلال انتظام عناصرها في علاقات دلالية تمنح المشهد الطبيعي بنية قادرة على احتضان التجربة الشعورية وتوجيه مساراتها.

وتتخذ العلامة الطبيعية بعدا أكثر كثافة حين تتقاطع مع التجربة الاغترابية؛ إذ تصبح الطبيعة مجالا تتفاعل فيه الذات مع عالمها، وتعيد من خلاله تشكيل علاقاتها بالمحيط والذاكرة والآخر؛ فقد يرتبط المشهد الطبيعي بحالة من العزلة والتأمل، أو يستدعي زمنا مفقودا وفضاء بعيدا، أو يهيئ للذات مجالا تستعيد فيه إحساسها بالحرية والانسجام.

وقد تتخذ الطبيعة صورة العالم الموازي الذي تنفتح عليه الذات حين تضيق صلتها بمحيطها الإنساني، فتتولد من عناصرها شبكة من الإحياءات المرتبطة بالملاد والحنين والتأمل والانفصال والبحث عن فضاء أكثر توافقا مع الداخل.

تحدد فاعلية العلامة الطبيعية -في هذا السياق- من خلال العلاقة التي تنشأ بين طبيعة العنصر وطريقة حضوره في الخطاب؛ إذ إن "المعنى لا يمكن

(13) آرت فان زويست: العلاماتية وعلم النص (نصوص مترجمة)، تر:

منذر عياشي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 2004م، ص39.

(12) جان كوهن: بنية اللغة الشعرية، ترجمة: محمد الولي ومحمد العمري،

دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1986م، ص191.

حيث يقيم علاقة تماثل تجعل من الليل معادلاً شعوريا للذات، فيغدو المشهد الطبيعي وسيلة لقراءة الداخل الإنساني.

وتتبدى أولى الدلالات الاغترابية لهذا التماثل في قوله: "كلانا مهتم بما ليس فيه"؛ إذ تحمل عبارة "ليس فيه" دلالة الغياب؛ فيصبح المفقود بؤرة مشتركة بين الذات والليل؛ فالليل بما يحمله من احتجاب وظلمة يتجاوب مع ذات منشغلة بما تفتقده أو تتطلع إليه، وبذلك تتشكل العلامة الطبيعية في منطقة يتقاطع فيها الليل والغياب والاعتراب، وحين تتأكد علاقة المماثلة هذه عبر التكرار: "أنا مثلك"، تتسع لتشمل "أميالي وأحلامي وخلقي وأخلاقي"، فتتحول خصائص الليل إلى إطار يستوعب الجوانب الوجدانية والنفسية والقيمة للذات، وكأن الليل أصبح صورة تستعيد فيها ذاتها وتتعرف إلى ملامح وجودها الداخلي.

ومن ثم تتجاوز الطبيعة وظيفتها الوصفية؛ لتشارك في إنتاج معنى الاغتراب من خلال تماثل الذات مع عالم يحمل خصائص العزلة والانفراد والاحتجاب. ويعزز (جبران) هذا المعنى باستحضار "الغيوم الذهبية" و"الأشعة الوردية" و"المجرة"؛ فهي علامات تنتمي إلى حقل الضوء والزينة الكونية، في مقابل الذات التي ترد في سياق الحرمان من هذه المظاهر: "وإن لم يتوجني"، "وإن لم يرصع"، "وإن لم أكن ممنطقاً".

هذا التدرج العلاماتي من المساء إلى الصباح ثم إلى المجرة؛ أي من مظاهر الجمال الأرضي إلى الاتساع

أن يوجد وتصاغ حدوده بشكل مرئي إلا في علاقته بالنسق المولد له⁽¹⁴⁾؛ فالمشهد الطبيعي يكتسب دلالاته من موقعه في حركة النص، ومن علاقته بالأفعال والصور والأزمنة والأمكنة والضمائر، ومن درجة اقترابه من الذات أو ابتعاده عنها.

ومن ثم تتفاعل الطبيعة مع بقية الأنساق العلاماتية في بناء التجربة، فيتصل المكان بعناصره الطبيعية، ويتداخل الزمن مع تحول المشهد، وتتجاوب حركة الذات مع حركة الطبيعة، وتغدو الصورة الخارجية مجالا تتشكل داخله الدلالة الاغترابية في مستوياتها المختلفة، كما في قول "جبران":

"أنا مثلك أيها الليل وكلانا مهتم بما ليس فيه.

أنا مثلك بأميالي وأحلامي وخلقي وأخلاقي.

أنا مثلك وإن لم يتوجني المساء بغيومه الذهبية.

أنا مثلك وإن لم يرصع الصباح أديالي بأشعته الوردية.

أنا مثلك وإن لم أكن ممنطقاً بالمجرة.

أنا ليل مسترسل منبسط هادئ وليس لظلمتي بدء وليس لأعماقي نهاية، فإذا ما انتصبت الأرواح متباهية بنور أفرانها تتعالى روعي متجمدة بظلام كآبتي.

أنا مثلك أيها الليل ولن يأتي صباحي حتى ينتهي أجلي.⁽¹⁵⁾

ينتقل الليل في هذا النص من كونه ظاهرة طبيعية إلى علامة تتماهى معها الذات وتستمد منها صورة لوجودها الاغترابي؛ كما في قوله: "أنا مثلك أيها الليل"

(15) جبران خليل جبران: العواصف، مؤسسة هنداوي للنشر، القاهرة، 2012م، ص30.

(14) سعيد بنكراد: السيميائيات، مفاهيمها وتطبيقاتها، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، ط3، 2012م، ص222.

الكوني، بينما تظل الذات خارج دائرة هذا الاحتفاء، ينتج مسافة دلالية بين الذات والعالم؛ فيتجلى الاغتراب في صورة انفصال عن فضاء يبدو مشبعاً بالنور والجمال.

وتنتقل العلاقة من التشابه مع الليل إلى التماهي معه في المشهد: "أنا ليل مسترسل منبسط هادئ"، فيغدو الامتداد المكاني في "مسترسل، منبسط" معادلاً لامتداد الحالة النفسية، بينما يحول قوله "ليس لظلمتي بدء وليس لأعماقي نهاية" الظلمة والعمق إلى علامتين على رسوخ الاغتراب واستمراره؛ فالظلمة لم تعد خاصة لليل وحده، وإنما أصبحت "ظلمتي"، والعمق الطبيعي أصبح "أعماقي"، في حركة يتبادل فيها العنصر الطبيعي والحالة النفسية دلالاتهما، حتى يغدو الليل صورة للذات وامتداداً لوجودها الداخلي.

ثم يكتمل هذا النسق في التقابل بين "نور أفراحها" و"ظلام كآبتي"؛ حيث تنتظم الطبيعة في ثنائية الضوء والظلمة لتجسيد المسافة بين الذات والآخر؛ فالأرواح الأخرى تتحرك في فضاء النور والفرح، بينما تنفرد روحه بظلام الكآبة؛ ومن ثم يصبح الضوء علامة على المشاركة والانفتاح، في حين يتخذ الظلام دلالة الانفراد والانكفاء، فيتجاوز الاغتراب عند (جبران) حدود الإحساس الداخلي ليكشف اختلاف الذات عن المحيط الإنساني.

وتختتم التجربة بعودة المماثلة: "أنا مثلك أيها الليل"، ثم بقوله "ولن يأتي صباحي حتى ينتهي أجلي"، فيتحوّل الصباح من ظاهرة طبيعية إلى علامة على الانفراج المؤجل، ويرتبط تحققه بنهاية الحياة.

وبذلك تغلق الدائرة العلامية للنص من الليل إلى الصباح ثم تعود إلى الليل، وتتجمع عناصر الظلمة، والغياب، والضوء، والمجرة، والصباح، في بناء واحد

يجعل الطبيعة لغة لتمثيل الاغتراب؛ فالذات تعيد تشكيل الطبيعة وفق تجربتها، ثم تستعيد منها صورة لوجودها؛ ليغدو الليل العلامة المركزية التي تتكشف فيها دلالات العزلة والكآبة والغياب والانفصال واستمرار الاغتراب.

وتتخذ العلامة الطبيعية عند (إيليا) مساراً دلالياً آخر، تتفاعل فيه الطبيعة مع تجربة الذات من خلال صورة النجم وما يكتنفها من السهد والتيه والانتظار، يقول:

مثلي هذا النجم في سُهدهِ

ومثلهُ المحبوبُ في بُدهِ

يختالُ في عُرْضِ السّما تائهاً

كأنما يختالُ في بُردهِ

يسعى ولا يسعى إلى غايةٍ

كَمَن يرى الغاية في جدّه

كأنما يبحثُ عن ضائعٍ

لا يستطيعُ الصّبر من بَعدهِ

طال سُرّاهُ وهو في حَيرةٍ

كأنه المحزونُ في وجدهِ

بينما اتخذ الليل عند (جبران) صورة كلية تماهت معها الذات حتى غدا الشاعر "ليلاً" ممتداً في ظلامه وأعماقه، فإن "النجم" يتخذ عند (إيليا) وظيفة العلامة العاكسة لحالة الذات من خلال شبكة من العلاقات التي تجمع بين السهد، والبعد، والتيه، والانتظار؛ فيدخل النجم في بنية علاماتية تتولد دلالتها من

ويزداد هذا البعد وضوحاً عبر التشبيه في قوله: "كأنما يبحث عن ضائع لا يستطيع الصبر من بعده؛ إذ يسند الشاعر إلى النجم فعل "البحث"؛ فيتحول إلى ذات موازية للذات الإنسانية، تبحث عن مفقود لا تحدد هويته. ومن منظور سيميائي، يصبح "الضائع" مركزاً دلالياً للنص؛ لأنه يستحضر الغياب من خلال أثره، ويجعل البحث عنه علامة على عدم اكتمال الذات. وفي حين جعل (جبران) الغياب أكثر مباشرة في عبارات مثل "كلانا مهتم بما ليس فيه"، فإن (إيليا) يبينه عبر علامة "الضائع"؛ فيصبح المفقود حاضراً من خلال البحث عنه، ثم يتداخل الزمن والحالة النفسية مع الحركة في تشكيل امتداد الاغتراب: "طال سُرّاه وهو في حيرة كأنه المحزون في وجده"؛ إذ يدل "السُرّى" على حركة السير ليلاً، لكنها لا تقود إلى الوصول، وإنما تقترن بالحيرة والحزن. وهنا يلتقي (إيليا) مع (جبران) في دلالة الامتداد، وإن اختلفت آلية التعبير؛ فاستمرار الظلمة عند (جبران) يقابله استمرار السرى الحائر عند (إيليا).

وتتجلى العلامة الطبيعية في البيت الأخير: "في جُح ليلٍ حالِكٍ فاحم، كأن حظي قُدّ من جلده"؛ فالليل ليس معادلاً كلياً للذات كما عند (جبران)، وإنما إطار يحتوي النجم والذات والحركة والحيرة، سرعان ما يتحول إلى علامة على قتامة المصير. لتأتي عبارة "قد من جلده" فتكشف عن انتقال الظلمة من المجال الطبيعي إلى المجال الوجودي؛ إذ يصبح الليل مادة رمزية صيغ منها "الحظ" نفسه، وإذا كان (جبران) قد جعل الظلمة امتداداً مباشراً للذات في قوله "ظلام كآبتي"، فإن "إيليا" يجعل الطبيعة أصلاً رمزياً

علاقته بالذات وبالمحبوب وبالليل والحركة والغاية؛ لتغدو الطبيعة وسيلة لإعادة صياغة التجربة الاغترابية في صورة كونية، تتجلى -منذ المطلع- عبر علاقة مماثلة صريحة بين الذات والعنصر الطبيعي: "مثلي هذا النجم في سُهده، ومثله المحبوب في بعده"؛ فصيغة "مثلي" تنقل النجم من مستوى المشاهدة الخارجية إلى مستوى التمثيل، إذ يصبح المحبوب والنجم طرفين في علاقة تشابه تتقاطع فيها حالتا السهد والبعد.

وإذا كان (جبران) قد أقام مماثلته على "أنا مثلك أيها الليل"، ثم دفع بها إلى التماهي بقوله "أنا ليل"، فإن (إيليا) يحافظ على مسافة بين الذات والنجم، فلا يذيب أحدهما في الآخر، وإنما يجعله علامة تقرأ الذات من خلالها تجربتها. ومن ثم تتخذ الطبيعة عند (إيليا) وظيفة المرآة الكونية، في حين تتحول عند "جبران" إلى معادل وجودي للذات.

وتتعمق هذه المماثلة في قوله: "يختالُ في عُرْضِ السّماء تائهاً"؛ إذ تتشكل مفارقة بين اتساع الفضاء والتهيه النفسي؛ حيث تتحول دلالة المجال المفتوح من الحرية إلى الضياع. وهنا يلتقي (إيليا) مع (جبران) في تحويل الامتداد الطبيعي إلى امتداد نفسي، غير أن "جبران" يربطه باستمرار الظلمة وعمقها، بينما يربطه (إيليا) بالحركة والتهيه: "يسعى ولا يسعى إلى غاية"، فتصبح الحركة نفسها علامة على الاغتراب؛ فالذات تتحرك، لكنها لا تبلغ، وتسعى دون أن تحقق غاية، وهو ما يعني أن الاغتراب عند (إيليا) يتخذ صورة حركية، في مقابل الاغتراب الساكن والمنغلق عند "جبران".

للمصير؛ فيتحول المشهد الطبيعي إلى تمثيل لحالة وجودية تتسم بالحزن والاغتراب.

وفق هذا التحليل، تتضح خصوصية العلامة الطبيعية هنا؛ فالطبيعة عند كليهما نسق علامات يتفاعل مع الذات وينتج معها الدلالة الاغترابية، غير أن (جبران) يجعل الليل معادلاً وجودياً لذاته، تتكثف فيه دلالات الظلمة والعمق والغياب والانغلاق، بينما يجعل (إيليا) النجم علامة موازية لذاته، تعكس السهد والنتية والانتظار والبحث عن المفقود، ومن ثم يقوم الاغتراب الطبيعي عند الأول على التماهي والانغلاق، في حين يقوم عند الأخير على الحركة والبحث المستمر دون بلوغ الغاية.

المبحث الثالث: العلامات الذاتية والزمانية وتمثلات الاغتراب.

تتصل تجربة الاغتراب في الخطاب الشعري بوعي الذات بموقعها في العالم، وبالعلاقات التي تنشأ مع الآخر والمحيط والزمن؛ إذ يتشكل هذا الوعي من خلال الخبرات والمواقف التي تمر بها الذات، حتى يغدو حضورها في الخطاب حاملاً لآثار تجربتها ومواقفها من العالم، ويأتي الآخر طرفاً ملازماً لهذا الوعي؛ إذ إن نشأة الأنا رهينة بوجود الآخر⁽¹⁶⁾؛ فتحدد صورة الذات من خلال علاقتها به، وما ينشأ عنها من مشاعر الألفة والنفور والقرب والبعد.

ومن هنا تتشكل العلامات الذاتية عبر دوال لغوية كالضمائر وألفاظ الشعور والانفعال ومفردات الوحدة والخوف والحنين والألم، وتستمد قيمتها من سياقها وقدرتها على الكشف عن حركة الأنا وعلاقتها بالآخر

والعالم، ويمتد حضور الذات إلى الزمن الذي تنتظم فيه تجربتها، حيث يتداخل الزمن الخارجي مع الزمن الشعوري الذي تعيد الذات من خلاله إدراك الماضي والحاضر والمستقبل وفق خبرتها الوجدانية؛ فـ "الزمان الشعوري الحيوي حقيقة لا شك فيها بالنسبة إلى الإنسان؛ والزمان الفيزيائي هو الآخر ضروري من أجل إيجاد مقياس مشترك نسجل فيه الظواهر الخارجية في حركتها من ناحية التوالي"⁽¹⁷⁾.

ومن ثم تتحدد دلالة العلامة الزمنية من خلال علاقتها بوعي الذات، وما تستحضره الأزمنة من دلالات الاسترجاع والانتظار والفقد والقلق؛ فالماضي يستعيد حضوره في الحاضر، والمستقبل يتشكل في الوعي عبر التطلع أو التوجس، بينما يكتسب الحاضر قيمته من موقعه بين ما مضى وما يُنتظر؛ إذ "لا يمكن إحياء الماضي إلا بتقييده بموضوعة شعورية حاضرة بالضرورة"⁽¹⁸⁾.

وعلى هذا الأساس، تتداخل العلامات الذاتية والزمانية في بناء الدلالة الاغترابية؛ فالأولى تكشف عن موقع الأنا وتحولاتها في علاقتها بالآخر والعالم، بينما تكشف الثانية عن كيفية استشعار الذات امتداد الزمن وآثاره، وتتقاطع في هذا التداخل الذاكرة والتطلع، والحضور والفقد، والاسترجاع والانتظار، لتتفاعل الدوال الذاتية مع العلامات الزمنية في تشكيل التجربة الاغترابية.

ومن ثم يتتبع هذا المبحث هذه العلامات في نصوص (جبران) و(إيليا أبي ماضي)؛ للكشف عن العلاقات التي تنتظم بينها، وإسهامها في تشكيل

(19) غاستون باشلار: جدلية الزمن، ترجمة: خليل أحمد خليل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط3، 1992م ص47.

(17) ينظر: عبدالرحمن بدوي: الزمان الوجودي، مكتبة النهضة المصرية،

مصر، ط2، 1955م، ص36.

(18) المرجع نفسه، ص146.

تمثلات الاغتراب داخل التجربة الأدبية. يقول (جبران):

"إذا منعنتي الأيام وغلت يدي الليالي طلبت الموت، فالموت أخلق بنبيّ منبوذ في أمته، وشاعر غريب بين أهله. البشر يلتصقون بالمادة الباردة كالثلج، وأنا أطلب شعلة المحبة لأضمها إلى صدري فتأكل ضلوعي وتبري أحشائي؛ لأنني ألفت المادة تميت الإنسان بلا ألم، والمحبة تحييه بالأوجاع. البشر ينقسمون إلى طوائف وعشائر وينتمون إلى بلاد وأصقاع، وأنا أرى ذاتي غريباً في بلد واحد وخارجاً عن أمة واحدة."⁽¹⁹⁾

يتمثل الاغتراب في هذا النص من خلال العلاقة المتوترة بين الذات والزمن، ثم تتسع هذه العلاقة لتشمل الجماعة والعالم والقيم التي تنتظم فيها حياة الإنسان، وتتكشف هذه البنية منذ المطلع في قوله: "إذا منعنتي الأيام وغلت يدي الليالي؛ ف"الأيام" و"الليالي" تحضر في الوعي الجمعي على أنها وحدات لقياس الامتداد الزمني، غير أن السياق هنا يعيد تشكيلها داخل تجربة ذاتية تجعلها طرفاً في معاناة الأنا؛ إذ يسند "المنع" إلى الأيام و"الغل" إلى الليالي؛ فيكسب الزمن قدرة على الفعل، ويتحول من إطار تجري فيه حياة الإنسان إلى قوة تتدخل في حياته وتفرض عليها حدودها. ويزداد هذا التحول وضوحاً حين يرتبط "الغل" باليد؛ فاليد موضع الفعل والقدرة والامتداد نحو العالم، وحين تصبح مغولة بفعل الليالي؛ فإن دلالة العلامة الزمنية تتجه إلى تعطيل قدرة الذات على الفعل. وهنا يتجاوز الاغتراب معنى الشعور بالوحشة إلى إحساس الأنا

بأن الزمن نفسه قد أصبح حاجزاً بينها وبين إمكان تحقيق ذاتها. بل إن بنية الشرط: "إذا منعنتي الأيام وغلت يدي الليالي طلبت الموت" تكشف عن حركة دلالية متصلة بين الزمن والذات والمصير؛ ففعل الزمن يأتي أولاً "منعنتي الأيام"، ثم يظهر أثره في الجسد "غلت يدي الليالي"، ثم تنتهي الحركة إلى "طلب الموت"؛ وبهذا يتخذ الموت دلالاته من السياق الذي أنشأه الزمن؛ فيصبح علامة على بلوغ أزمة الذات مستوى وجودياً عميقاً.

وتزداد هذه الدلالة وضوحاً حين يفسر (جبران) طلبه للموت بقوله: "فالموت أخلق بنبيّ منبوذ في أمته، وشاعر غريب بين أهله"؛ فاننقل الخطاب من "الأيام" و"الليالي" إلى "النبي" و"الشاعر" يكشف عن ذات ترى غربتها متصلة بموقعها داخل الجماعة وبالدور الذي تحمله في العالم.

وهنا تصبح كلمتا "منبوذ" و"غريب" علامتين مركبتين في النص؛ لأنهما تتقلان التجربة من الإحساس بسلطة الزمن إلى الوعي بموقع الذات إزاء الآخرين. ومن ثم يأتي اقترانهما بـ"أمته" و"أهله"؛ ليجعل الانتماء خلفية دلالية للغربة، فتتحدد هوية الذات المغتربة من خلال المسافة التي تفصلها عن دوائر القرب والجماعة.

ومن هنا يكتسب الحضور المتكرر للأنا دلالة تتجاوز مجرد بروز ضمير المتكلم؛ إذ تتقدم الذات في النص وهي تستعيد علاقتها بالأشياء وتصدر أحكامها على العالم: "أنا أطلب"، "ألفيت"، "أنا أرى ذاتي غريباً"؛ فكأن الذات هنا لا تكتفي بمعايشة الغربة، وإنما تتجه

(20) جبران: دمة وإبسماء، دار العرب للبستاني، القاهرة، د. ط،

إلى ذاتها وتراها من موقع المتأمل؛ فتتحول "غريباً" إلى علامة تستقر داخل وعي الأنا وتحدد صورتها عن نفسها.

وإذا ما نظرنا إلى اجتماع "أنا" و"ذاتي" و"غريباً" في عبارة واحدة؛ وجدنا الاغتراب في المسافة التي تكتشفها الأنا بين وجودها وبين العالم الذي يفترض أن يمنحها شعور الانتماء؛ ولهذا تبدو الغربة في النص تجربة وعي بالذات قبل أن تكون وصفاً لمكان أو ظرف اجتماعي؛ فالذات ترى نفسها من الداخل وتكتشف أن موقعها في العالم لا يطابق حاجتها إلى الانتماء إليه، ثم يأخذ هذا الوعي شكله الاجتماعي في قوله: "البشر ينقسمون إلى طوائف وعشائر وينتمون إلى بلاد وأصقاع"؛ فالخطاب هنا يرسم صورة للعالم الإنساني من خلال علاقات الانتماء التي تمنح الفرد موقعه داخل الجماعة.

وحين تحمل "الطوائف" و"العشائر" و"البلاد" و"الأصقاع" دلالات تتصل بالهوية والجماعة والمكان، يأتي فعل "ينتمون" ليجمع هذه الدلالات في حركة واحدة تتجه نحو الارتباط والتجذر، ثم تعود الأنا لتضع نفسها داخل هذه الصورة: "وأنا أرى ذاتي غريباً في بلد واحد وخارجاً عن أمة واحدة"، وهنا تتشكل المفارقة الدلالية من داخل العلاقة بين "ينتمون" و"غريباً"، وبين "أمة" و"خارجاً"؛ فالعالم الذي يحيط بالذات يقوم على شبكات من الانتماء، بينما تكتشف الأنا موقعها خارج هذه الشبكات.

بل إن دلالة الاغتراب لتزداد كثافة في الجمع بين "بلد واحد" و"أمة واحدة"؛ لأن الذات تحدد غريبتها داخل دوائر الانتماء القريبة والواسعة معاً؛ مما يجعل الاغتراب شعوراً يطال المكان والجماعة والهوية في وقت واحد. ويتصل هذا الاغتراب الاجتماعي باغتراب

قيمي يظهر في المقطع الذي يقابل فيه (جبران) بين "المادة" و"المحبة": "البشر يلتصقون بالمادة الباردة كالثلج، وأنا أطلب شعلة المحبة"؛ إذ تكشف هذه العلامات عن اختلاف في الرؤية إلى العالم؛ ف"المادة" تستحضر عالماً تحكمه الأشياء والمصالح، بينما تمنح "المحبة" للوجود بعداً إنسانياً تتطلع إليه الذات.

ويأتي وصف المادة بـ"الباردة كالثلج"؛ ليكشف دلالتها الوجدانية؛ فالبرودة هنا علامة على فقد الدفء الإنساني، في حين تحمل "الشعلة" في الجهة المقابلة معنى الحرارة والحياة والاتصال، ومن ثم يصبح بحث الأنا عن "شعلة المحبة" بحثاً عن عالم تستطيع أن تنتمي إليه وجدانياً، ويأخذ اغترابها صورة اختلاف بين ما يراه الآخرون قيمة في الحياة وما تراه هي مصدرًا لمعناها، وتتعلم هذه الدلالة حين تتحول المحبة إلى تجربة جسدية في قوله: "لأضمها إلى صدري فتأكل ضلوعي وتبري أحشائي"؛ فالجسد هنا يستقبل القيمة التي تبحث عنها الذات، وتصبح "الصدر" و"الضلوع" و"الأحشاء" علامات على عمق الحاجة إلى الاحتواء والاتصال.

ثم تأتي العبارة: "لأنني ألفت المادة تميت الإنسان بلا ألم، والمحبة تحييه بالأوجاع"؛ لتعيد تنظيم العلامات السابقة داخل رؤية واحدة للحياة؛ فالموت والحياة والألم كلها تدخل في شبكة دلالية تكشف معيار الذات في الحكم على العالم؛ إذ ترتبط الحياة عندها بقدرة المحبة على إيقاظ الوجدان، حتى حين تقترن بالألم، بينما يرتبط عالم المادة بالموت والخواء؛ وبهذا يصبح الألم علامة على قوة الصلة بالحياة، وتغدو المحبة أفقا تتطلع إليه الذات للخروج من برودة العالم واستعادة معنى الوجود الإنساني.

وعلى امتداد النص تتفاعل العلامات الزمنية والذاتية والاجتماعية والقيمية في تشكيل تمثيل مركب للاغتراب؛ إذ تبدأ التجربة من "الأيام" و"الليالي" التي تضغط على الذات، ويتجسد أثرها في "غلت يدي"، ثم يتبلور الوعي بالاغتراب في "منبوذ" و"غريب"، ويتسع في "خارجا" ليشمل دوائر الانتماء، ثم يأخذ بعدا قيميا في مقابلة "المادة الباردة" و"شعلة المحبة"؛ وبهذا تتدرج العلامات من الإحساس بحصار الزمن إلى وعي الأنا بموقعها، ثم إلى إدراك المسافة بينها وبين الجماعة، وصولا إلى اختلافها في منظومة القيم التي تمنح الوجود معناه.

وتتكامل هذه المستويات في تشكيل صورة اغترابية لذات يستحكم وعيها بغربتها داخل الزمن والجماعة والعالم، وتتجه -في الوقت نفسه- إلى المحبة باعتبارها أفقا لاستعادة الصلة بالإنسان والوجود.

ويتخذ تمثيل الاغتراب عند (إيليا أبي ماضي) مسارا مغايرا في تشكيل العلامة الزمنية والذاتية؛ إذ تتجه التجربة إلى الداخل، ويتحول الزمن إلى مصدر للقلق والهم، يقول:

عرفتُ الزمان قريب الأذى

فصرْتُ إلى خوفه أقربا

وهذا الجديد أبوه القديم

ولا تلد الحية الأرنب

هُمُ القومُ أصحابُهم مُكرهاً

كما يصحبُ القمرُ الغَيْها

أراني أُوحد من ناسكٍ

على أنني في عداد الدّبي

وقال خليلي: الهناءُ القصورُ

وكيف وقد مُلئتُ أدُوبا

ألفتُ الهموم فلو أنني

قدّرتُ تمنّعتُ أن أطربا

كأنّ الجبالَ على كاهلي

كأنّ سروري أن أغضبا

وكيف ارتياحُ أخي غربة

يُصاحبُ من همّه عقربا

عَبْتُ على الدهر لو أنني

آمَنْتُ فؤادي أن يعتبا⁽²⁰⁾

تتفاعل العلامات الزمنية والذاتية في تمثيل الاغتراب منذ المطلع: "عرفتُ الزمان قريب الأذى"؛ إذ تتحول علامة "الزمان" من دلالة التعاقب والامتداد إلى مصدر للأذى تستشعره الذات وتتحسب ضرره: "فصرْتُ إلى خوفه أقربا"، فالزمن هنا يدخل في تكوين موقف الذات من الحياة، لكنه موقف يتجسد في الخوف الذي يؤسس لحالة اغتراب داخلية لا تتغير: "وهذا الجديد أبوه القديم..."؛ بما يجعل الزمن في وعي الذات حركة تكرارية يستمر فيها ما سبق أن خَبَرته من ألم، ومن ثم لا يبدو المستقبل أفقا للتحويل ولا أملا للطمأنينة، وإنما امتدادا لما تعرفه الذات من تجربة

(20) (إيليا أبي ماضي، الأعمال الشعرية الكاملة، ص 322).

الاغتراب والقلق، وهو ما يفسر اقتران الزمن بالخوف منذ البداية.

وفي هذا المستوى يلقي (إيليا) مع (جبران) في جعل الزمن مدخلا إلى الاغتراب، غير أن الزمن عند (جبران) يظهر في صورة قوة تحاصر الأنا: "منعتني الأيام وغلت يدي الليالي"، في حين يستقر أثره عند (إيليا) داخل الوعي نفسه؛ فيتحول إلى خوف واستباق للضرر.

ومن هذا الوعي الزمني تنتقل التجربة إلى علاقتها بالآخر؛ فيأخذ الاغتراب صورته الذاتية الاجتماعية: "هم القوم أصحابهم مكرها..."؛ فالمصاحبة هنا علامة ذات دلالة مزدوجة؛ إذ تحيل في ظاهرها إلى وجود الذات بين الناس، لكنها تقترن بـ"مكرها" الذي يفرغ هذا الوجود من معنى الألفة؛ لذا تأتي النتيجة الدلالية لهذا التناقض: "أراني أوجد من ناسك..."؛ إذ تنتظر الذات إلى نفسها من الداخل فتجدها "أوجد"، بينما تستقر في الوقت نفسه داخل جماعة البشر؛ فيتولد الاغتراب من المفارقة بين وجود الذات مع الآخرين وشعورها بأنها منفصلة عنهم؛ فالجماعة حاضرة في المشهد، والوحدة مستقرة في الوجدان.

ويقارب هذا التصور ما يكشف عنه (جبران) في قوله: "وأنا أرى ذاتي غريباً في بلد واحد وخارجاً عن أمة واحدة"؛ إذ يشترك النسان في جعل الأنا مركزاً لاكتشاف الغربة، مع اختلاف صورتها: (جبران) يحدد الغربة في علاقة الذات بدوائر الانتماء، بينما تتشكل غربة (إيليا) من مفارقة أكثر حدة: الجماعة حاضرة، والصحبة قائمة، لكن الألفة غائبة؛ ومن هنا يصبح الاغتراب عنده تجربة تتولد في صميم الاجتماع الإنساني.

وتتسع هذه المسافة بين الذات والعالم حين تنتقل من مستوى العلاقة بالآخر إلى المجال الوجداني: "ألفْتُ

الهموم"؛ فالألفة التي يُنتظر أن تكون علامة على الطمأنينة تنقلب هنا إلى علامة للهموم؛ فيصبح الهم جزءاً من تكوين الذات ووعيها بالحياة؛ لتظهر آثاره النفسية والجسدية: "كأنّ الجبال على كاهلي"؛ فالجبال تضخم الإحساس بالثقل النفسي، والكاهل يحول المعاناة النفسية إلى حمل يستقر في الجسد، ومن ثم تصبح الذات حاملة لاغترابها، لا مجرد شاهدة عليه؛ فالهم الذي بدأ مجرد شعور يتحول إلى حمل ثقل، حمل يحد من القدرة على الفرح "تمنعتُ أن أظرباً".

وفي هذا تتقاطع التجربة مع (جبران) في قوله: "غلت يدي الليالي"، إذ يتجسد أثر الزمن في الجسد لديهما؛ غير أن صورة القيد عند (جبران) تعبر عن تعطيل الحركة والفعل، بينما تعبر صورة الحمل عند (إيليا) عن استنزاف القدرة على الانفعال والفرح؛ مما يكشف اختلاف المسار النفسي للاغتراب في التجريبتين.

ونتيجة لهذا التراكم الاغترابي يأتي الاستفهام الإنكاري: "وكيف ارتياح أخي غربة يصاحب من همه عقرباً"؛ إذ تمثل "الغربة" علامة تكثف مجمل تجربتها السابقة، ثم يأتي تشبيه الهم بالعقرب ليمنح هذه الغربة صورة ملازمة مؤذية، تجعل القلق رفيقاً مؤذياً للذات. وهو ما يعني أن الغربة هنا تجاوزت حدود المكان فأصبحت حالاً وجودية تصاحب الذات أينما كانت.

وهنا تتضح المفارقة بين التجريبتين؛ فغربة (جبران) تقوم في جانب منها على المسافة بين الذات والعالم وقيمه، كما يتضح في موقفه من عالم "يلتصق بالمادة الباردة كالثلج" في مقابل بحثه عن "شعلة المحبة"، بينما يستمد (إيليا) غربته من تراكم الخوف والهم وانعدام الألفة؛ فتغدو الغربة عنده ثمرة لتجربة نفسية متصلة أكثر من كونها مجرد موقف فكري من العالم.

الخاتمة:

من خلال استقراء علامات الاغتراب وتمثلاته في نصوص (جبران خليل جبران) و(إيليا أبي ماضي)، نخلص إلى عدد من النتائج، هي:

يتشكل الاغتراب في شعر (جبران) و(إيليا أبي ماضي) عبر شبكة من العلامات المكانية والطبيعية والذاتية والزمانية، تتفاعل داخل السياق الشعري لتمنح التجربة دلالتها الخاصة، وتتجاوز هذه العلامات حدود الإحالة المباشرة إلى المكان أو الطبيعة أو الزمن؛ إذ تستمد قيمتها من علاقاتها بالذات والآخر وبقية مكونات الخطاب؛ فتتنظم في بنية دلالية تتجسد من خلالها تجربة الانفصال والوحشة والبحث عن الانتماء.

يقوم المكان بدور محوري في تشكيل التجربة الاغترابية هنا، وتحدد دلالاته وفق علاقة الذات به وطبيعة موقعه داخل شبكة الفضاءات؛ ففي شعر (جبران) يتحول "الغاب" إلى مأوى بديل، تتداخل فيه الحماية والحرية والحلم، وتعيد الذات من خلاله بناء صلتها بالطبيعة والوجود. وفي شعر (إيليا) يتشكل المكان عبر ثنائية "المشرق" و"الغرب"، فيرتبط الرحيل بالبحث عن فضاء آخر، بينما يستحضر "الوطن" ذاكرة الانتماء وما يحيط بها من معاناة وطموح مؤجل. تؤدي الطبيعة وظيفة دلالية تتجاوز حضورها الحس؛ إذ تتحول عناصرها إلى امتدادات للحالة الداخلية وإلى وسائط لتجسيد الاغتراب، ويتخذ "الليل" عند (جبران) موقعا مركزيا في هذا النسق؛ فتتداخل ظلمته وامتداده وعمقه مع ظلمة الذات وكآبتها، حتى يغدو معادلا لتجربتها الوجودية، أما "النجم" عند (إيليا) فيحمل علامات السهد والبعد والته والبحث؛ فتغدو حركته في

وتستعيد الخاتمة العلامة الزمنية: "عتبتُ على الدهر"؛ ليغدو العتاب آخر تجليات الاغتراب؛ فالذات التي بدأت بـ"عرفتُ الزمان" تنتهي إلى مخاطبة "الدهر"، غير أنها لم تعد في نهاية التجربة كما كانت في بدايتها؛ فقد انتقلت من معرفة الزمن وأذاه إلى معيشة 1. أثره في الخوف والوحدة والهم والغربة. وأخيرا يأتي "العتاب" ليكشف عن علاقة مركبة بين الذات والزمن؛ فالذات تحاول مساءلة الزمن، لكنها في الوقت نفسه تدرك أن ما أصابها قد استقر في أعماقها حتى أصبح الفؤاد نفسه طرفا في هذه العلاقة.

وهكذا تتكامل العلامات المتناثرة في النص لتشكيل بنية واحدة: زمن يستحضر الأذى، وماض يتكرر في الحاضر، وصحبة تخلو من الألفة، وذات تكتشف وحدتها بين الناس، وهم يتحول إلى ثقل، وغربة تستقر 2. في الوجدان حتى تصبح رفيقا دائما؛ وبذلك يتأسس اغتراب (إيليا) على انكماش المسافة بين الخارج والداخل؛ فما يبدأ بوصف الزمن والعالم ينتهي إلى استقرار أثرهما في الذات؛ فتغدو الغربة حالة داخلية تعيد تشكيل علاقتها بالآخر وبالحياة وبالزمن.

أما (جبران)، فتتجه علاماته إلى إبراز وعي الذات بالفارق بينها وبين العالم، وبما يحمله هذا العالم من قيم لا تنسجم مع تطلعاتها؛ الأمر الذي يمنح اغترابه بعدا وجوديا وقيما أكثر وضوحا، في حين يتخذ عند 3. (إيليا) صورة اغتراب نفسي تتراكم علاماته حتى تستحيل إلى إحساس دائم بالثقل والوحدة.

عند "إيليا"، وتتجاوز الصلبة والوحدة، والحركة والغاية المؤجلة، بما يعمق البنية الدلالية للاغتراب.

تتحدد خصوصية التجربة عند (جبران) في نزوع الذات إلى إعادة تشكيل علاقتها بالعالم من خلال الطبيعة والمحبة والحلم؛ فالغاب مأوى، والليل مرآة للداخل، والمحبة أفق للاتصال الإنساني، وتغدو العزلة مجالاً للتأمل واستعادة الحرية. أما عند (إيليا) فتتجه التجربة إلى الحركة والرحيل والتهيه والبحث، ويصبح النجم مرآة للذات، والزمن مصدراً للقلق، والهم رفيقاً ملازماً، والغربة حالة تتولد من تداخل المسافة المكانية مع الوحدة النفسية والاجتماعية.

تنتهي شبكة العلامات إلى صورتين متميزتين للاغتراب داخل التجربة المهجرية؛ صورة جبرانية تتجه إلى إعادة بناء العلاقة بالوجود عبر الاحتفاء بالطبيعة واستحضار المحبة والحلم، وصورة إيلياية تتشكل من تراكم القلق والوحدة والهم والبحث عن فضاء أكثر ملاءمة للذات، ومن خلال هذا التفاعل بين العلامات وعلاقاتها تتبلور خصوصية الرؤية الفنية عند كل شاعر منهما، ويتحول الاغتراب من تجربة شعورية إلى بنية دلالية تتقاطع فيها الذات والمكان والطبيعة والزمن والآخر؛ فتمنح العلامة قدرتها على تمثيل أزمة الإنسان في علاقتها بالعالم والبحث عن موضع يحقق له معنى الانتماء.

المصادر والمراجع:

- [1] آرت فان زويست: العلاماتية وعلم النص (نصوص مترجمة)، تر: مندر عياشي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 2004م.
- [2] إيليا أبو ماضي، الأعمال الشعرية الكاملة، جمع وتقديم: عبدالكريم الأشتر، مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت، ط1، 2008م.

الفضاء صورة لحركة الذات في تجربة يغلب عليها الانتظار والحيرة.

4. ترتبط العلامات الذاتية في التجريبتين بحركة الأنا في 7. علاقتها بالآخر والعالم، وتكتسب الضمائر وألفاظ الشعور والانفعال والغربة والوحدة قيمتها من موقعها داخل السياق، وتبرز عند (جبران) ذات واعية بمفارقتها للجماعة واختلافها عن منظومة القيم السائدة؛ فتتجه إلى المحبة والطبيعة بحثاً عن إمكان للاتصال بالوجود، بينما تتشكل ذات (إيليا) من خلال الإحساس بالوحدة وسط الجماعة، وتراكم الخوف والهم والحيرة؛ فتغدو الغربة حالة وجدانية تتعمق كلما ازدادت صلة الذات بالعالم المحيط.

5. يتداخل الزمن مع العلامات الذاتية في بناء الاغتراب؛ إذ يتحول الزمن من إطار لحركة الأحداث إلى عنصر فاعل في تشكيل وعي الذات بتجربتها، فعند (جبران) تظهر "الأيام" و"الليالي" في صورة قوة تضغط على الأنا وتعيق قدرتها على الفعل، ويتصل هذا الضغط بإحساسها بالنبذ والغربة، وعند (إيليا) يرتبط "الزمن" بالخوف من الأذى وتكرار الألم، ويتحول الماضي إلى خبرة ممتدة في الحاضر، بينما يظل المستقبل محكوماً بالتوَجُّس؛ فتستقر الغربة في الوعي من خلال إحساس متواصل بثقل الزمن.

6. تنتظم التجربة الاغترابية هنا من خلال ثنائيات دلالية تتفاعل في إنتاج المعنى، أبرزها: الوطن/ المهجر، الحضور/ الغياب، الذات/ الآخر، الطبيعة/ العمران، النور/ الظلمة، الماضي/ المستقبل، الحركة/ السكون، والألفة/ الوحدة، وتتحوّل هذه الثنائيات إلى علاقات مولدة للدلالة؛ فالغاب يقابل القصور عند "جبران"، والنور يقابل ظلمة الكآبة، بينما يتقابل المشرق والغرب

- [3] جان كوهن: بنية اللغة الشعرية، ترجمة: محمد الولي ومحمد العمري، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1986م.
- [4] جبران خليل جبران: دمة وابتنسامة، دار البستاني للنشر، القاهرة، د. ط، 1914م.
- [5] العواصف، مؤسسة هنداوي للنشر، القاهرة، 2012م.
- [6] المواكب، دار العرب البستاني للنشر، القاهرة، د. ط، 1993م.
- [7] سعيد بنكراد: السيميائيات، مفاهيمها وتطبيقاتها، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، ط3، 2012م.
- [8] عبدالرحمن بدوي: الزمان الوجودي، مكتبة النهضة المصرية، مصر، ط2، 1955م.
- [9] عبده بدوي: الغربية والاغتراب والشعر، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، ط2، 1998م.
- [10] غاستون باشلار: جدلية الزمن، تر: خليل أحمد خليل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط3، 1992م.
- [11] جماليات المكان، تر: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط2، 1984م.
- [12] شاعرية أحلام اليقظة، علم شاعرية التأملات الشاردة، تر: جورج سعد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1991م.
- [13] محمود رجب: الاغتراب، سيرة مصطلح، دار المعارف، القاهرة، ط3، 1988م.
- [14] منذر عياشي: منذر عياشي: السيميائيات (السيمولوجيا)، قراءة في العلامة اللغوية العربية، دار أمل، سورية، ط1، 2018م.
- [15] العلاماتية وعلم النص، نصوص مترجمة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2004م.
- [16] يوري لوتمان، وآخرون: جماليات المكان، عيون المقالات، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1988م.